جامعة النجف الدينية

بقلم: الدكتور فاضل الجمالي* ترجمة: الدكتور جودت القزويني

مدينة (النجف) المقدسة هي مكان ضريح الإمام علي بن أبي طالب (ع) ـ الخليفة الرابع للمسلمين، والإمام الأول للمذهب الشيعي ـ ومن الأماكن الإسلامية التي تأتي بالمرتبة الرابعة بعد (مكة، المدينة، القدس).

ويتوافد الزائرون إليها من جميع أماكن العالم الشيعي، وفيها يدفنون أمواتهم أيضاً.

أما مدينة (الكوفة)، موقع مسجد الإمام علي (ع)، فهي تبعد عن (النجف) مسافة ثلاثة أميال تقريباً. وكانت هذه الحاضرة العاصمة الإسلامية الأولى في العراق، والتي عُرفت مدرستها اللغوية كمنافس لمدرسة (البصرة).

والنجف بحد ذاتها مركز دراسي شيعي كبير على غرار جامعة (الأزهر) في مصر، و(الزيتونة) في تونس، إلا أن الدراسة العلمية المتقدمة للمذهب الشيعي لها خاصتها المميزة عن بقية المذاهب الإسلامية بسبب استمرار مبدأ (الاجتهاد) والذي يعني التوصل إلى درجة علمية عالية تُمكن (المجتهد) من استنباط الأحكام الشرعية من القرآن، السنّة (الحديث)، ومن أقوال الرسول (ص)، وأفعاله أيضاً. وعلى ذلك فإن رأي (المجتهد)، واستنباطه قد يُلائم كثيراً التطورات الحاصلة تبعاً لتغير الزمن.

وقد أُلزم الشيعة اتباع آراء (المجتهد) الحي، وعند موته فإنها ستفقد حيويتها وجدتها. أما في جانب المذاهب السنّية فإنها اعتادت على اتّباع تعاليم الأئمة الأربعة العظام، والقادة المتكلمين الذين عاشوا في العصور الوسطى وهم: (أبو حنيفة، الشافعي، ابن حنبل، مالك). ولم تسجل المذاهب السنية ظهور مجتهد جديد بعد الأئمة الأربعة.

وعلى كل حال فالشيعة دائماً لهم مجتهدهم الحي الذي يُفترض أن يتصف ـ ولو نظرياً ـ

---

* رئيس وزراء عراقي أسبق، ومن الشخصيات المثقفة بالثقافتين الشرقية والغربية. يقيم حالياً في تونس.

المقال بعنوان: (Theological Colleges of Najaf) نُشر في مجلة:

((The World Muslim العدد (٥٠)، والسنة (١٩٦٠م) من صفحة (١٥ ــ ٢٢).

عن: مجله الموسم الهولندية ع١٨ لسنة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م ص ١١٧ - ١٢٥.

بالتبحر العلمي، والتفكير الأصيل، والفحص الشامل، وتحليل المعطيات الدينية.

وتعتبر (النجف) مركز الرئيس للدراسات الثقافية الشيعية أما (سامرّاء)، و(كربلاء)، و(الكاظمية) فبالرغم من مدارسها الدينية الخاصة بها، فإنها بشكل عام لا تقاس أهمية بالنجف.

أما مدينة (قم) الإيرانية ـ والتي هي تحت قيادة المجتهد الكبير السيد البروجردي ـ فإنها أخذت تحتل مكانة مهمة في الدراسات العقلية لكنها ومع كل ذلك لم تستطع أيضاً مضاهاة النجف بذلك.

وفي (النجف) ما يقرب من أربعة وعشرين مدرسة دينية أشهرها مدرسة البروجردي، اليزدي، الآخوند، الهندي، القوام، الصدر، الأحمدية، كاشف الغطاء، المهدية، كما تضم ما يقرب من ألفي طالب من مختلف الجنسيات، وأغلبهم من الإيرانيين، وإن كانت هناك أعداد أخرى من الطلبة العراقيين، والباكستانيين، والهنود، والكشميريين، والأفغان، واللبنانيين، والتبت، وطلبة آخرين من دول الخليج.

والتركيبة الإحصائية لعدد الطلاب في (النجف) في شهر ديسمبر ١٩٥٧ هي كالآتي:

الطلبة الإيرانيون ٨٩٦

الطلبة العراقيون ٣٢٦

الطلبة الباكستانيون ٣٢٤

الطلبة التبت ٢٧٠

الطلبة الهنود ٧١

الطلبة السوريون واللبنانيون ٤٧

الطلبة البحرانيون والقطيفيون ٢٠

والمجموع الكلي هو (١٩٥٤) طالباً. وهذا العدد يختلف باختلاف فصول السنة، والظروف.

ومنذ ثلاثين عاماً على وجه التقريب كان كاتب هذه السطور قد غاص في الدراسة، وطرق التدريس لإظهار تفرّد النظام الدراسي في (النجف)، وأهميته، وكان ذلك جزء من بحث للدكتوراه يتناول (النظام الدراسي في جامعات النجف) إلا أن المقترح تبدل لعنوان آخر حول (ثقافة القبائل البدوية في العراق).

إن معرفتي بالنجف، وبنظامها الدراسي بدأ منذ طفولتي عندما كان المرحوم والدي عالماً هناك، حيث أنفق حوالي تسعة عشر عاماً بالدراسة في النجف، ثم بعد ذلك وفي سن الخامسة عشرة بدأت أتثقف بنفس الثقافة ولكن في مدينة (الكاظميّة). ومع مرور الزمن ترسخت معتقداتي إننا في (النجف) نملك (منجماً) من المثقفين يجب أن يستكشف ليتعرف عليه العالم ويقدّره، ويتبنى بعض ظواهره.

لقد درست أغلب نظم التعليم الجامعي في (الغرب)، وزرت الجامعات (الألمانية)، و(البريطانية)، و(الفرنسية)، وجامعة أكسفورد، وكامبرج، وتلقيت تعليمي في الجامعات (الأميركية)، إلا أنه ما من جامعة من هذه الجامعات، حتى الجامعات (الألمانية) تستطيع أن تفخر في حرية التعليم بما يضاهي حرية التعليم، والعمق في جامعة (النجف) والتي تطبع شخصية المنتسبين إليها بطابعها المتميز، فالنظام التعليمي لا يخضع لنفوذ الدولة، ولا يموّل من قبلها. وبالرغم من وجود (٢٤) مدرسة علمية فإنه لا توجد هيأة خارجية، أو سلطة تسيطر عليها، أو تقوم بإدارتها، كما لا يوجد (رؤساء)، أو (عمداء)، أو أساتذة، وإنما يستطيع أي فرد مهما كان مستواه الثقافي أن ينضم للمدرسة إذا استطاع أن يجد له مكاناً للإقامة ما دامت لديه الرغبة في الدراسة، كما أن القانون الذي يدير هذه الجامعات، وينظمها هو فقط الوازع الديني، والانضباط النفسي.

إن كل مدرسة من هذه المدارس تتكون - على الأغلب - من باحة مفتوحة على شكل مربع، أو مستطيل، وفي وسطها (بركة) ماء محاطة بالأشجار. كما تحاط هذه (الباحة) المربعة بغرف يسكنها طالب، أو طالبان، ويكون فيها الدور الأرضي مرتفعاً بما يقرب (المتر) عن الأرض. ويتكون السكن في معظم المدارس من دور واحد، إلا أن مدرسة (البروجردي) وهي المدرسة الحديثة الوحيدة التي تتكون من دورين. وقد زرت بعض غرف الطلاب، ولم تكن فيها (أسرّة)، وكان الطلاب ينامون على فرش يمدونها فوق (السجاجيد) و(الحصران). أما تهويتها فتتم إما عن طريق الشبابيك، أو عن طريق (المداخن)، وبعضها الآخر لم يكن فيها تهوية إلا من خلال الباب. وتحتوي بعض هذه الغرف على تدفئة متنقلة، كما أن معظم المدارس تحتوي على (سراديب)، ومخازن تحت الأرض يلجأ إليها الطلبة أيام الصيف القائض. وبعض سراديب (النجف) تكون أكثر من دور واحد وكلما نزل الشخص إلى عمق سرداب، أو اثنين، أو ثلاثة فإن البرودة سوف تزداد بشكل تدريجي حتى إنه يحتاج إلى ملابس ثقيلة في السرداب الثالث إذا أراد أن يحتمي منها.

ويرتدي جميع الروحانيين عادة (عمة) نصف دائرية كبيرة سوداء أو بيضاء، والأولى تدل على أن صاحبها (سيد) أو (هاشمي) في انتسابه، أما (العمة) البيضاء فإنها لا تدل على ذلك.

وبالرغم من أن لكل مدرسة ـ كما هو معروف ـ (متعهداً) أو (قيّماً) فإن الطلبة الذين يعيشون في مدرسة واحدة يعتمدون على أنفسهم في إعداد الطعام، وتنظيف الملابس ما لم يكن لهم وسائط لتناول الطعام في الخارج، وإمكانية دفع أجور غسل الملابس وتنظيفها. كما أنهم يحصلون على خبزهم بصورة مجانية من الهبات التي يبعثها المحسنون الشيعة إلى المجتهد الأعظم.

ويتفق المجتهد الإيراني آية الله البروجردي ـ المقيم في مدينة (قم) ـ ما يقرب من (ستة) الآلاف دينار عراقي شهرياً في (النجف) و(كربلاء) و(سامراء) لغرض توفير (الخبز)، ودفع المرتبات الشهرية إلى ما يقرب من (الخمسمائة) طالب، حيث تكون حصة كل منهم ما بين دينار ونصف الدينار إلى دينارين، وترتفع نسبة المدخول الشهري حتى تصل إلى ثلاثين ديناراً لتغطية احتياجات بعض العلماء البارزين، (مع ملاحظة أن الدينار العراقي الواحد يقارب دولارين وثمانين سنتاً).

إن أصحاب العوائل من الطلبة الذين يعيشون خارج المدارس يشكلون نصف عدد الطلاب، وهم يترددون إليها لغرض الدراسة والمباحثة، أو تسلّم المرتبات المالية المخصصة لهم ومع ذلك منهم من يعتمد ـ في أغلب الأحيان ـ على المساعدات التي تصل إليهم من عوائلهم، أو من المصادر الخيرية لتغطية احتياجاتهم بشكل كامل. وليس هناك ميزانية محددة، ولا مورد معين لهذه المدارس، فالطلبة يدرسون دون أن يدفعوا أي نفقات، كما أن المدرسين يدرّسون دون أن يتلقوا أي مبلغ على ذلك.

وأغلب العلماء هم طلبة، ومدرسون في آن واحد، فالمتقدمون منهم ممن يحضر بحوث (المجتهد) يدرّسون أولئك الذين هم أقل مرتبة منهم. كما أن هؤلاء يدرّسون الذين لا يزالون أقل من مرتبتهم العلمية، وهكذا. وعلى ذلك فإن أي شخص يدرس في (النجف) سيصبح ـ بعد وقت قصير ـ تلميذاً وأستاذاً في وقت واحد. ولا يوجد وقت محدد للدراسة فربما يمكث الطالب سنين عديدة حسب ما تمليه عليه رغبته، أو يقضي معظم حياته بالدراسة والتدريس.

ومعدل سني الدراسة العلمية (١٥) عاماً لكن ذلك رقم احتياطي لهؤلاء الذين لم يُحدّدوا بوقت معين، وربما رغب الطلاب بالإقامة خمس سنين، أو عشراً، أو خمس عشرة،

أو عشرين، فليست هناك (امتحانات) يجب تجاوزها. إن (النجف) على هذه الحال أشبه ما تكون بـ(نافورة) كبيرة يمكن لأي شخص أن يتقرب إليها، ويعبُّ منها ما يستطيع من العلم ما دام لديه اهتمام. ولا يُطلب من أي شخص عمل ما لم يرغب هو به، وباختياره.

وتتضمن (الحَلْقات) الدراسية منهاجاً مقرراً في اللغة، والمنطق، وعلم الكلام، ولكن المواضيع الأخرى ـ في شكلها القديم الذي يعود إلى العصور الوسطى ـ كالفلسفة، وعلم الهيأة، والرياضيات، يمكن تدريسها أيضاً إذا رغب الطالب بذلك. وفي (المكتبة) يستغل الطالب وقته لدراسة أي موضوع آخر كتعلّم اللغات الأجنبية أو الشعر، كما يتمتع بحرية اختيار شريكه وزميله في الدرس، وكذلك اختيار أساتذته من بين الأساتذة وتحديد ساعات الدراسة، ومكانها معهم، والتي تكون إما في المدارس، أو في المساجد، أو في بيت الأستاذ نفسه. ويعتبر مسجد (الهندي) واحداً من أكبر المراكز الدراسية والذي يضم (الحلقات) الصغيرة إلى جانب المحاضرات الموسعة. فالذين يشكلون (حلقة) دراسية ربما كانوا طالبين فقط، أو ثلاثة، أو أكثر من أربعة وعشرين طالباً في العدد، ما لم تكن هذه (الحلقة) الدراسية هي حلقة متقدمة تلقى كمحاضرة عامة من على (المنبر).

وفي هذه الأجواء يختلف معدل التقدم العلمي للطالب من شخص إلى آخر فالذين باستطاعتهم التحرك سريعاً يمكن أن يتقدموا بحرية، أما أولئك الذين يتحركون ببطء فإنهم يسيرون تبعاً لما تملي عليهم خطواتهم، فليس هناك استعجال في الدراسة إذا لم تكن أوقاتهم محددة، كما أنهم لا يطالبون بوثيقة امتحان علمية، ومصدقة. وربما يقضي الطالب غير المجد معظم حياته إذا رغب بذلك دون أن يُخرجه أحد من المدرسة. أما التفوق العلمي، والنبوغ المبكر فيظهران بصورة طبيعية. وإذا حدث أن اشتهر عالم بذلك فإنه يبدأ باستقطاب الأنظار، ويصبح محطّاً لانتباه أولئك الذين يودون مصاحبته، والدراسة على يديه.

وفي الصباح الباكر ـ (بعد صلاة الفجر، وقبيل طلوع الشمس) ـ تبدأ الدراسة، وتستمر بعد صلاة (المغرب) بساعة واحدة. ويحدد الطلبة أوقاتهم الدراسية مع أساتذتهم الذين اختاروهم، وربما يدرّس أساتذة متعددون الموضوع نفسه في زمان واحد.

إلى جانب (الحلقة) الدراسية هناك فترة نقاش، ومناظرة بين الطلبة أنفسهم ـ إذا كانوا في حلقة دراسية واحدة ـ حيث يناقشون الدرس الملقى عليهم كمحاضرة يلقيها واحد منهم، وهو يتصرف كما يتصرف (الأستاذ)، ويُسأل من قبل زملائه كما يُسأل الأستاذ نفسه.

ويملك الطالب ساعاته الخاصة في تهيئة المواد العلمية، وشحذ ذاكرته وتفكيره بالشكل الذي يراه ضرورياً.

وتُقسم الدراسة في (النجف) إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: (مرحلة السطوح):

وتشمل دراسة اللغة العربية، والبلاغة والمنطق ويبدأ الطالب بدراسة كتاب قواعد العربية المبسط، والذي يسمى بـ(الآجروميّة)، وتنحدر هذه التسمية من كلمة (القواعد) اليونانية، وعندما ينتهي الطالب منه يبدأ بكتاب أكثر اتساعاً خُصص للمتقدمين ويسمى (القَطر)، والذي عُوّض عنه بكتاب (جامع المقدمات)، بعده ينتقل إلى كتاب لقواعد اللغة هو شرح على ألف بيت من الشعر لابن مالك أختصر فيها قواعد اللغة. ويسهل عادة حفظ هذه الأبيات المتضمنة قواعد العربية الضرورية، ولا يجد الطالب مشقة في استرجاعها. والكتاب الأخير المتقدم جداً هو (مُغني اللبيب) حيث يشمل جميع قواعد اللغة العربية المعقدة، والدقيقة.

وبعد انتهاء دراسة القواعد العربية يتحول الطالب إلى كتاب (المُطوّل) للتفتازاني (في علم البلاغة)، ولما ينتهي منه ينتقل إلى علم المنطق حيث يبدأ بدراسة المنطق الأرسطي في كتاب (الحاشية) للملا عبد الله، وتستغرق مرحلة السطوح عادة سبع سنوات.

المرحلة الثانية (مرحلة الفضلاء):

وهي تشابه مصطلح (Sophomore) المستعمل في الجامعات الأميركية (والذي يقرب بمستوى علمي أشبه ما يكون بالسنة الجامعية الثانية).

وفي هذه المرحلة يدرس الطالب على أصول الفقه، والفقه، ويتضمن الأول طرق استنباط الأدلة، من المصادر الأصلية (الشرعية)، أما الثاني فيشمل قواعد، وأحكام الدين المختصة بالعبادات (كالطهارة، والصلاة، والصوم، وأداء الزكاة)، وبالمعاملات (كالمحاضر التجارية، الزواج الميراث وما شابه ذلك).

والكتب التي تدرّس على الأصول هي (المعالم)، (القوانين)، (الرسائل)، (الكفاية)، وعندما يتجاوز الطالب هذه المناهج بنجاح يتحول من المرحلة البسيطة إلى مرحلة أكثر تعقيداً.

أما الكتب الفقهية فهي (التَبْصِرة)، (الشرائع)، (اللُمعة)، (المكاسب)، (العروة الوثقى)، وهنا أيضاً تتصاعد الكتب في تعقيداتها، واصطلاحاتها العلمية والتقنية.

وبعد هذه المرحلة المتوسطة يبلغ الطالب المرحلة الدراسية الثالثة، والتي تُسمى:

مرحلة البحث الخارج:

وفيها يحضر الطلاب (الدروس) التي تلقى في محاضرات عامة من قبل (المجتهدين) وتتضمن تحليلات اختصاصية عالية جداً في مجال دراسة الأدلة، واستكشافها. ومن بين (المجتهدين) المشهورين الذين يقررون مثل هذه البحوث السيد محسن الحكيم، والسيد حسين الحمامي، والسيد أبو القاسم الخوئي.

وقد حضرت قليلاً من تلك الدروس في شهر كانون الأول سنة (١٩٧٥م)، وقد كانت محاضرة الخوئي مساءً في مسجد (الخضرة) تحوي ما يقارب مائة وخمسين طالباً، كلهم قد (تربّعوا) على الأرض. ولم تكن المحاضرة قد زادت عن أكثر من ثلاثين دقيقة، وكان موضوعها حول (مناهج البحث الفقهي). كما حضرتُ محاضرة للسيد حسين الحمامي في مسجد (الهندي)، وكان مجموع الحضور من الطلبة يقارب المائة والخمسين طالباً أيضاً. ودار محور المحاضرة حول (نية) الفرد، وقصده فيما يخص (الصلاة)، وتركزت المحاضرة على تحليل معنى (النية)، وصلتها بفعل (الصلاة)، وتضمنت المناقشات معالجات نافعة لمباحث علم النفس.

والمحاضرة الأخرى التي حضرتها هي محاضرة آية الله السيد محسن الحكيم في مسجد (الطوسي)، والتي تناولت بالبحث (عقد قران العبيد، وعلاقته بموافقة مالكيهم).

إن هذه المرحلة لا تخضع للزمن المحدد، وربما يستمر الطالب فيها حتى نهاية عمره، وإن غاية العلماء الكبار هي الوصول إلى المرحلة العالية من الاجتهاد، والتي يمكن أن تُتصور بأنها تماثل درجة (الدكتوراه) في العلوم العقلية الدينية، عندها يمتلك (المجتهد) القدرة على استنباط الأحكام الشرعية المستندة إلى تمكنه من علم أصول الفقه، وفحص الآراء، وبالأدلة، ونصوص القرآن والسنة في المسائل الدينية، وإن مرحلة (الاجتهاد) لا تُحصّل بالدراسة وحدها، ولكن بنفاذ البصيرة التي هي في حد ذاتها منحة إلهية. فالتعلّم لا يقاس بزخم المعلومات الهائلة، ولكن بالنور الذي يقذفه الله في قلوب العارفين من العلماء.

ويتّبع الشيعي في شؤون حياته اليومية تعاليم (المجتهد) ويسمى (المقلّد). والعالم الذي

يصل إلى مرحلة (الاجتهاد) والذي لم يكن باستطاعته النهوض بالقيادة (المرجعية) فإنه يبقى معلقاً بين مرحلتي (الاجتهاد) والتقليد) ويسمى (محتاطاً). وهناك الكثير منهم في النجف يمكن أن يظهر اجتهادهم لعامة الناس يوماً ما، كما أن هناك عدداً من كبار المجتهدين، بعضهم على درجة عالية من الثقافة، وبعضهم ممن يفتخر بهم العالم الشيعي، ويقوم بعض هؤلاء (المجتهدين) بالواجبات العامة تجاه شؤون الناس الاجتماعية في حين أن بعضهم الآخر قد قصر نفسه على النشاطات العلمية وحدها.

وقد زرت مؤخراً عدداً من المدارس، وتحدثت مع الطلبة حول دراستهم، ومعيشتهم، وعن أوطانهم أيضاً. وسألت أحد الطلبة وهو الشيخ محمد رضا شمس الدين أن يوضح لي منهاجه اليومي، وقد ذكر لي أنه ينهض صباحاً قبل طلوع الشمس بنصف ساعة ليؤدي صلاة (الفجر)، وبعد شروق الشمس يحضر بحث (الخارج) على يد السيد أبي القاسم الخوئي في (الفقه). وبعدها يتجه إلى تدريس (البلاغة)، والفلسفة الإسلامية في كتاب يسمى (شرح الباب الحادي عشر) للمقداد السيوري، عندها يحضر درساً فقهياً آخر في بحث (الخارج) للشيخ عباس الرميثي، يعالج جانباً من شرح كتاب شهير هو كتاب (الشرائع) ثم تأتي المحاضرة الثالثة لبحث (الخارج) في مباحث (الزكاة) من نفس المصدر. ثم يستمر بالحضور على يد السيد علي الفاني الأصفهاني في محاضرات البحث (الخارج) الأخرى.

وهو مع كل ذلك كان عليه أن يستعد للدراسة والتحضير بنفسه وألا يتخلف عن مواعيد الصلوات، وما يحتاجه لشؤون حياته الخاصة.

وبالتأكيد فإن هذا البرنامج هو برنامج مليء بالحيوية. وبعبارة أخرى فإن الطالب يمكن أن يُتعب نفسه إذا رغب، أو يتركها وشأنها إذا كان ذلك رائقاً له. وبالنتيجة فلا توجد أي قوة خارجية تجبر الطالب على أداء مهماته سوى ما تمليه رغبته عليه.

أما الطالب المتألق الآخر الذي زرته في مدرسة (القوام) فهو الشيخ علي الكرمي وهو من الطلاب الذين يعيشون مع عوائلهم خارج المدارس. ويحضر هذا الطالب الشاب محاضرات الشيخ حسين الحلّي، ويمتلك قابلية أدبية حسنة، وعقلاً فلسفياً رائعاً. وهو بدوره يقوم بتدريس علوم (البلاغة). أما أخوه فهو عالم شهير، ومؤلف دراسات في الفلسفة الإسلامية.

إن الميزات الثقافية التي تختص بها (النجف) تندرج بما يلي:

١ ـ لا تخضع الدراسة لأي سلطة خارجية سواء أكانت حكومية أم مجلس إدارة.

٢ ـ إن أي شخص يذهب للإقامة في (النجف) فإنه يذهب لغرض تحصيل منفعته، فالتعلم لا يهدف أي دوافع خارجية سوى الصلاح الديني والتقوى، وخدمة الأغراض الإلهية. ولهذا فالطالب في (النجف) يجمع بين التقوى وطلب العلم.

٣ ـ تتميز الدراسة في النجف بأنها تستند إلى (القناعة) و(الزهد) ولا صلة للطالب بحياة (الترف) بالرغم من أن جميع الذين التقيت بهم بدوا على جانب من الكرم. فعندما كنت أزور غرف الطلبة كنت أُدعى لتناول (الشاي) أو (القهوة) أو المشروبات الأخرى. وقد ترك طالب (أفغاني) ـ كان يستقبلني ـ غرفته حالاً عندما اعتذرت له عن تناول المشروبات الخفيفة المتوفرة لديه، وجلب عوضاً عنها (صحناً) مليئاً بالرمان. إن الكرم والمودة ـ باختصار شديد ـ يطوقان تلك الأجواء.

٤ ـ الدراسة في (النجف) دراسة حرة بكل ما للكلمة من معنى، حيث لا توجد حدود للمناظرات والاستفسارات، فحرية البحث هي القاعدة التي يدور عليها إطار الفكر الإسلامي.

٥ ـ استطاعت الدراسة في (النجف) أن تحل إشكالية تفاوت الأفراد حيث يستطيع الطالب الانتقال من مرحلة دراسية إلى مرحلة أخرى حسب ما تمليه عليه مقدرته، واختياره لنمط المواد التي يرغب بدراستها، ونوعية الكتب أو الزملاء، وحتى اختيار الأستاذ الذي يرتاح إليه.

إن نمطاً كهذا من أنماط التعليم هو لغرض الفائدة، وعدم وجود فترة زمنية محددة للدراسة تجعل الطالب مستمراً في توجهه العلمي دون أي ضغوط، الأمر الذي يجعله لا يعاني من مشكلة المناهج المفروضة عليه أو مشكلة الساعات المقررة التي يُجبر على حضورها.

٦ ـ مشكلة (الامتحان) لا تضايق حياة الطلبة، أو أساتذتهم، وتبقى قابلية الطالب، وتمكنه من الأشياء السبيل الوحيد لنجاحه، ونجاح أقرانه أيضاً. وقد كان على أحد العراقيين من دارسي العلوم الدينية أن يُظهر بعض قدراته العلمية الأولية أمام لجنة لمتابعة الدراسة لكي يتخلص من الخدمة العسكرية لكَن مثل هذه المقابلة لا تعني أنه خضع لامتحان حقق له إنجازاً مهماً.

٧ ـ إن تطور الشخصية والطباع يُنمَّيان من خلال القدوة الحسنة، والرفقة الطيبة مضافاً إلى الالتزام بالتعاليم الدينية. ومع ذلك فقد سمعت بعض الشكاوى التي تشير إلى أن بعض

الأفراد من ذوي الشخصيات الضعيفة الذين يميلون إلى حب الذات يكونون في بعض الأحيان في صفوف الطلبة. وبعبارة ثانية إن الاحتياجات المادية الضرورية أضعفت المقومات التي كان يتمتع بها طلبة العلوم، كما أنها حدّت من نفوذ بعض العلماء الذين كانوا متنفذين بشكل كبير.

٨ ـ ومن الميزات المهمة للدراسة في (النجف) أنها دراسة تامة، فالموضوع الواحد يدرّس، ويعاد تدريسه في كتب متعاقبة. وبالتأكيد فإن هذه الطريقة ستترك تأثيراً قوياً على الطالب. وعلاوة على ذلك فإن الطالب يدرّس ما كان قد درسه أكثر فأكثر. وإن تجربتي الخاصة تدفعني للاعتقاد أنه لا توجد طريقة للتخصص في الموضوع أفضل من تدريسه.

وبالرغم من كل تلك المميزات فهناك بعض المشكلات التي تخص النظام الدراسي في جامعات (النجف) يمكن إجمالها بما يلي:

أولاً: (مشكلة المناهج الدراسية):

إن مناهج الثقافة ترجع إلى ثقافة العصور الوسطى القديمة، وإن علماء (النجف) وإن كانوا يمتلكون مداخل أولية للفكر المتجدد، والعلوم الحديثة، والفلسفة العصرية، وعلم النفس الحديث، وحتى في المجال الصحي، إلا أن ذلك لم يكن كافياً حتى يُلاحظ أن بعض المدارس لا تزال تحتوي على (حوض) ماء يُستعمل لجميع أغراض الغسيل المشتركة مما يساعد على (التلوث).

وقد أجريتُ محادثات كثيرة مع العلماء، والمجتهدين الكبار حول حاجة تقديم مواضيع دراسية جديدة كالفلسفة الحديثة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وبعض العلوم الطبيعية المبسطة، وشيء عن العناية الصحية. وكانت الاستجابة غير إيجابية. وأتذكر حديثاً جرى بيني وبين أستاذ في الفلسفة الإسلامية حول فلسفة هنري برجسون(Henri Bergson) وقد وجدته غير ملم بهذا الاسم.

من هنا فإن النتاج العلمي للنجف لم يحقق نجاحاً في مواجهة التحدي الروحي للعوالم الحديثة، مما يجعل هذه الملاحظة من الملاحظات الجادة في المضمار.

ثانياً: (مشكلة الإجازات العلمية):

والملاحظات الثانية تتعلق (بإجازة) الطلبة حيث ـ كما قلت ـ إن عدم الامتحان، وعدم

الرقابة على حضور الطلاب يجعل كي شيء يعمل بحرية تامة. ولكن في الوقت نفسه لا يمكن للمرء أن يتجنب لقاء أولئك الطلبة الذين يغادرون (النجف) لا عن (كفاءة)، ويدّعون أنهم مؤهلون للمهام الدينية في المناطق التي يذهبون إليها، ويُترك الأمر للناس حيث يمكن اكتشاف ما إذا كان رجل الدين مؤهلاً، أم لم يكن كذلك. وبالتأكيد فإن النزاهة، وأريحية الشخص ربما تكونان بديلاً في المهمات الاجتماعية عن المستوى العلمي المطلوب. ولا شك أن العالم إذا كان (مجازاً) ومعترفاً له ببلوغ الدرجة العلمية المطلوبة فإن الناس ـ والحال هذه ـ ستكون استفادتها منه بشكل أفضل.

ثالثاً: (مشكلة الاحتياجات المادية):

حيث ـ كما لاحظنا ـ أنه لا توجد مصادر مالية محددة، ولا دخل ثابت، وإنما يتأرجح ذلك حسبما تمليه الظروف المحيطة بهم، الأمر الذي يجعل حياة الطالب موضوعاً للضنك المادي المحاط بالمخاوف. كما أن الظروف المادية ربما لم تكن كافية بالمقدار الصحيح لإطعام الطالب أو إكسائه، أو توفير بعض المستلزمات التي يحتاجها للنفقة.

وبالختام فإن (النجف) تواجه نفس الصعوبات التي يواجهها العالم الشيعي بشكل عام. فهل أن العالم الشيعي ماضٍ لتغيير حياته الدينية نحو التجديد، والإدارة الأكثر تنظيماً؟! وهل سيغير قياداته الدينية إلى قيادات مسؤولة وعصرية، أم ستبقى الحياة الدينية بعيدة عن احتياجات الناس ومتطلباتهم، وتفكيرهم؟!

ما أتصوره: أن قادة (الشيعة) بالتعاون مع قيادات المذاهب الإسلامية الأخرى عليهم أن يوحدّوا جهودهم لإحلال الحياة الروحية في المجتمع المسلم، وجعلها تتلاءم مع متطلبات العالم المتمدن لكي يسود التفاهم، والتسامح، والأخوة الشعوب الإسلامية، وغيرها من الشعوب الأخرى المترامية في أنحاء العالم.